تأريخ مخطوطات البحر الميت

لما كانت المخطوطات المكتشفة لا تحمل تواريخ نسخها ولا حتى بيانات عن مؤلفيها فقد أثارت جدلاً كبيرًا حول تواريخ نسخها وكان تأريخ هذه المخطوطات مسألة حيوية وكان لابد أن يكون هناك إجماع أو شبه إجماع حول هذه التواريخ لأنه يترتب عليها بالضرورة تأسيس نظريات جديدة وهدم نظريات قديمة وبذلك يتقدم العلم. وكان من الأساسيات أن نحدد هل هذه المخطوطات عائدة إلى حقبة ما قبل المسيحية أم تنتمى إلى العصور الوسطى. ومن الجدير بالذكر أن هذا الجدل ثار مباشرة عقب الإعلان عن اكتشاف المخطوطات سنة ١٩٤٧ ولم يكن الخلاف بالأمر الهين حول تحديد التواريخ وحول عمر هذه النصوص لدرجة أن البعض أطلق عليها "معركة تأريخ المخطوطات". وربما استغرق هذا الجدل العنيف عقدًا كاملاً بعد الاكتشاف. والمصيبة الكبرى أن الغرب هو الذى اهتم اهتمامًا بالغًا يفوق الحد بهذا الاكتشاف ومر الأمر عند العرب مرور الكرام وكأن الأمر لا يعنيه وكأن هذه الاكتشافات لم تتم على أرضهم. وكان الباحثون الغربيون على كثرتهم ممن تناولوا هذه المخطوطات بالدرس والتمحيص والفحص، يخرج كل واحد منهم بتأريخ مختلف وكان المدى واسعًا جدًا يتأرجح ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثانى عشر الميلادى أى خمسة عشر قرنا عددًا. وظل هذا الخلاف لعدة سنوات طويلة بعد الكشف. وكان فى الطرف الأقصى من هذه المعارك البروفيسور سولومون زيتلن من كلية دروبسى الذى أعلن منذ البداية رأيه فى هذه المخطوطات ودون أن يراها أو يتفحصها وقال فى عنف ظاهر أن هذه المخطوطات جميعًا إن هى إلا خدعة من خدع القرن العشرين وبعد عدة سنوات تراجع البروفيسور وقال أن هذه المخطوطات تخص طائفة يهودية من العصور الوسطى تعرف باسم

(الكريتيون) (القراءون) وهم طائفة تؤمن بأسفار العهد القديم ولكنها لا تؤمن بأسفار ما بعد الكتاب المقدس ولا بكتب الربابنة.

وكان لا بد لعلم الآثار والفحص الكربونى من أن يلعب الدور الأساسى فى تأريخ هذه الوثائق وهو العلم الذى حسم هذا الخلاف ويعزى إليه الفضل فى تقريب وجهات النظر والآراء المختلفة؛ وإن بقى بعض المتشنجين الذين يقولون بأن نتائج علم الآثار ليست قاطعة وأن علم الآثار ليس من العلوم الطبيعية التى تعتمد على القياس الكمى المحدد. ولكن العلماء من أمثال و.ف. أولبرايت و ف.م. كروس (الأصغر) وغيرهما كثيرون رفضوا هذا الزعم وقبلوا بنتائج علم الآثار.

وعلى ضوء القرينة الأثرية واللغوية والباليوجرافية استقر الأمر الآن يقينًا، وبعد مرور أكثر من ستين عاما على هذه الكشوف، على أن تواريخ هذه المخطوطات إنما تقع بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى. ومع بعض الاستثناءات ليس هناك اليوم من يدحض هذه النتائج. والمقصود بهذه التواريخ هنا هى مخطوطات البحر الميت بوادى قمران. أما مخطوطات وادى المربعات وخربة مرد فلها حديث آخر. وقبل الدخول فى تفاصيل تواريخ مخطوطات البحر الميت نقدم المخطط العام لعملية التأريخ تلك كمدخل نوعى.

أولاً: تنازع التواريخ

١- هناك سلسلة واسعة المدى من التواريخ التى اقترحت لمخطوطات البحر الميت تبدأ من القرن الثالث والقرن الثانى قبل الميلاد، مرورًا بالعصور الوسطى وانتهاء حتى بالقرن العشرين على نحو ما رأينا.

أ- يظل سولومون زيتلن واحدا من الباحثين القلائل الذين يرفضون تمامًا التاريخ القديم لتلك المخطوطات ويزعم أنها من كتابات "القرائين" (الكريتيون) العائدين إلى القصور الوسطى. وكان الرجل فى البداية يعتقد أن هذه المخطوطات خدعة.

ب- استقر رأى معظم الباحثين اليوم وبعد مضى أكثر من ستين عاما على

الكشف على أنها تعود إلى الفترة ما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى.

٢- هناك قضيتان أساسيتان تتعلقان بتأريخ هذه اللفافات هما:

أ- متى كتبت أو نسخت هذه المخطوطات؟

ب- متى وضعت أو أودعت هذه المخطوطات فى الكهوف؟

أ- هناك اتفاق عام لا منفذ فيه للتجريح أو الاستثناء على أن هذه المخطوطات كتبت يقينا قبل عام ٦٨م لأن الكهوف التى وجدت فيها لا تضم أى أثر يدل على أنها سُكنت بعد ذلك العام.

ب- من الجائز أن تكون المخطوطات قد أودعت الكهوف على مرتين فى مناسبتين، قبل ٦٨م؛ وبين ٦٨م و١٣٥م عندما تم تدمير بيت المقدس تمامًا. وقد دعمت هذه الفرضية العملات المعدنية التى وجدت فى المنطقة.

٣- هناك عاملان قاطعان يدلان على قدم هذه المخطوطات:

أ- مناخ منطقة البحر الميت التى تقع تحت مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط بأكثر من ١٢٠٠ قدم وبالتالى فهو مناخ جاف جدًا.

ب- الجرار المحكمة الغلق التى أودعت فيها اللفافات.

ثانيًا: العوامل الأربعة المحددة للتواريخ:

هناك أربعة عوامل علمية تم الاحتكام إليها فى تحديد تواريخ هذه المخطوطات وقد تضافرت هذه العوامل جميعًا – ولم ينفرد عامل واحد أو غلب – فى إعطاء تواريخ هذه المخطوطات.

١- **السياق الأثرى:** هناك ثلاثة عناصر أساسية برزت فى السياق الأثرى الذى عثر فيه على المخطوطات:

أ- الفخار: أكد الأثريون أن الجرار الفخارية – رغم تكسرها – التى أودعتها المخطوطات هى من طراز رومانى عائد إلى القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى تقريبا.

ب- العملات المعدنية. عشرات من العملات المعدنية التى عثر عليها فى أطلال قمران وفى الكهوف ترجع إلى الفترة ما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد.

١- العملات التى وجدت فى أطلال قمران تشى بالفترة التى عمرت وسكنت فيها قمران وهى تمتد بعد حكم جون هيركانوس مباشرة (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) وحتى السنة الثانية من الثورة اليهودية الأولى (٦٨م).

٢- من المحتمل أنه فى سنة ٦٨م كانت الفيالق الرومانية تتقدم نحو القدس وخلال هذا الزحف قامت بتدمير المستوطنة ومن ثم توفر المجتمع اليهودى على إيداع المخطوطات داخل الكهوف خوفا عليها وخاصة الكهوف المجهزة مما يقف دليلاً على أن المخطوطات هى أقدم من ٦٨م.

ج- الكتان. كشف الفحص الذى اجرى بـ(كربون ١٤) على النسيج الكتانى الذى غلفت به المخطوطات أنه يرجع إلى ٦٨م وما حولها:

١- قام و.ف. ليبِّى خبير الطاقة الذرية بإجراء فحص (كربون ١٤) سنة ١٩٥٠ فى معامل معهد الدراسات النووية فى جامعة شيكاغو لتحديد عمر الكتان:

أ- نتيجة للفحص الكربونى أعلن ليبِّى أن التاريخ الذى خرج به لعمر الكتان هو ٣٣م مع هامش خطأ بالنقص أو الزيادة ٢٠٠سنة.

ب- هذا الإعلان أو هذه النتيجة بالأحرى تحدد تاريخ الأغلفة الكتانية ما بين ٢٠٠ ق.م و٢٠٠م.

٢- قرر ج. م. كروفوت الذى قام بدراسات مستفيضة على الكتان الذى غلفت به اللفافات أنها أودعت فى الكهوف مع نهاية القرن الأول الميلادى.

٣- بعد تقدم تكنولوجيا كربون ١٤، أعيد الفحص الكربونى، وأثبت أن عمرها عند الفحص يصل إلى ٢٠٠٠ سنة أى نحو ٢٠ق.م.

٢- **السياق الباليوجرافى:** أكد عالم الكتابات والخطوط فى جامعة لندن س.

بيرنباوم بناء على دراساته الباليوجرافية الواسعة التى قام بها على خطوط اللفافات أن هذه اللفافات كتبت قبل الحقبة الرومانية؛ واستند فى ذلك إلى:

أ- الطرق المستخدمة فى الكتابة.

١- الأسلوب الأساسى فى القياس: النسب بين ارتفاع وعرض الحرف، العلاقة بين الحرف والسطر؛ السمك النسبى، جرة القلم والمدَّة.

٢- عمدت الطريقة إلى فحص عدد كبير من الحروف من الوثائق المعروف تواريخها، وتم تجميعها وجدولتها بطريقة منظمة ودرست الملامح المميزة لكل فترة. وهكذا تم عمل إطار وضع بداخله أشكال الحروف التى ظهرت فى اللفافات غير المؤرخة.

ت- المواد المتاحة للمقارنة:

١- هناك عدد من البرديات، والشقافة والرقوق والنقوش المؤرخة والتى كانت مكتشفة من قبل.

٢- تمت مقارنة حروف الأبجديات المستخدمة فى لفافات البحر الميت بمقابلاتها فى الوثائق المؤرخة مثل بردية ناش.

٣- من أحسن النماذج للمقارنة تلك التى وجدت فى حفريات (المسادا) بكل المواد التى لا يتطرق إليها الشك فى تاريخها: قطعة فخار وقطعة بردى وكلتاهما كتبت بحبر أسود وحروف عبرية قريبة جدًا وتشبه تمامًا الحروف التى كتبت بها لفافات البحر الميت.

ج- المعطيات الباليوجرافية:

١- لا تنتمى كافة مخطوطات البحر الميت إلى نفس التاريخ؛ ذلك أن تلك اللفافات التى كتبت بالخط المربع تغطى دائرة زمنية تمتد لقرنين ونصف قرن من الزمان.

٢- أن تاريخ كتابة المخطوط ليس بالضرورة هو نفس تاريخ تأليف أو وضع

النص، وعلى هذا الأساس فإن الخط هو الذى يحسم تاريخ المخطوط وليس تاريخ التأليف وقد وضع علماء الباليوجرافيا فى اعتبارهم آخر فترة استخدام للخط.

٣- **سياق علم الأملاء واللغة:** يعتبر هجاء الكلمات واللغة التى يكتب بها النص من قرائن العصر الذى يكتب فيه النص وبالاستناد إلى تلك القرائن فى مخطوطات البحر الميت إلى:

أ- لغة مخطوطات البحر الميت هى عبرية الكتاب المقدس حرفيًا مع نكهة آرامية ما قبل الحقبة المسيحية والعبرية المتأخرة وإلى حد ما بالسامرية.

ب- الهجاء وغيره من الملامح اللغوية فى المخطوطات كلها تدعم التاريخ بين ٢٠٠ق.م و١٠٠م.

٤- **السياق التاريخى:** يغل لنا السياق التاريخى مجموعة من الحقائق التى تدعم التاريخ المقترح والذى دعمته العوامل الثلاثة السابقة ومن بين تلك الحقائق نقتطف:

أ- هناك اتجاه عام بين الباحثين على اعتبار (الإسينيين) وهم الطائفة اليهودية التى اعتزلت عامة اليهود وكونت لها مجتمعًا خاصًا قبل المسيحية، هم أصحاب هذه المخطوطات وقد سكنوا تلك المنطقة من القرن الثانى قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادى.

ب- هناك جزء من لفافة هامة (شرح ناحوم) تتضمن أسماء تاريخية حقيقية من بينها: أنطيوخوس، ديمتريوس اللذين حكما فلسطين خلال القرن الأول قبل الميلاد وقبل ذلك القرن.

ج- وإلى جانب شرح ناحوم هذا هناك تقويم شعائر مسجلة فيه سلسلة من أسماء الملوك.

د- وثمة قرينة أخرى تخرج من بين المخطوطات نفسها وهو وجود نوع من تفاسير الكتاب المقدس العبرى نعرف يقينا أنه لا يمكن أن يكون موجودًا بعد القرن الثانى قبل الميلاد.

ويرى الباحث (شعبان خليفة) أن هناك دليلاً آخر لم يتطرق إليه كل من كتب حول تأريخ مخطوطات البحر الميت. هذا الدليل هو شكل المخطوطات نفسها ذلك أن كل مخطوطات المنطقة وقطع المخطوطات جاءت على شكل اللفافة. ومن المتفق عليه أن تحول شكل الكتاب من اللفافة إلى الكراس وقع بين القرن الثانى الميلادى والخامس الميلادى، وإن كان قد بدأ مع القرن الأول الميلادى إلا أن القرائن المادية الملموسة والتى وصلتنا تبدأ من القرن الثانى وقد أكتمل التحول تمامًا مع القرن الخامس الميلادى. ولو كانت مخطوطات البحر الميت قد كتبت بعد القرن الأول الميلادى لوجدنا بينها مخطوطات على شكل كراس. ولابد للباحثين أن يتجهوا إلى هذه القرينة ويضيفوها إلى القرائن الأربعة سابقة الذكر التى صالوا فيها وجالوا وفصلوا فيها تفصيلاً شديدًا. لقد غلب شكل الكراس على شكل اللفافة مع نهاية العصور القديمة. وقد جاء هذا التحول على يد المسيحيين ولو أدركته الطائفة التى كتبت تلك المخطوطات لمالت إليه لما فيه من مرونة واقتصاد فى التكاليف وإمكانية الكتابة على الوجهين وسهولة فى الاستخدام كتابة وقراءة. واختفاء شكل الكراس من تلك المخطوطات يؤكد التاريخ الذى أجمع عليه الباحثون، أكثر من النص المازورى لأن الترجمة السبعينية كانت تستند إلى تقليد قديم فى كتابة النص المقدس مختلف عما قام به المازوريون. ولئن نكتشف هذا التقليد القديم فى شكل مخطوط هو حلم طال انتظاره من جانب باحثى النصوص ونقادها؛ وإن بدا الاحتمال بعيدًا وذلك لسبب يعرفه الباحثون واليهود جيدًا وهو تدمير أو على الأقل التخلص من كل النسخ العبرية القديمة من المخطوطات بمجرد إتمام النسخ الجديدة من النص. ولقد وطن الباحثون أنفسهم على فكرة مرور وقت طويل بين آخر كتابات عبرية وتاريخ المخطوطات القائمة بين أيديهم مما حدا بباحث فذ مثل فردريك كينيون إلى أن يقول:

"ليس هناك فى حقيقة الأمر أى احتمال أن نجد مخطوطات للنص العبرى يرجع لما قبل جمع النص الذى نعرفه باسم النص المازوري".

ومن هذا المنطلق فإنه لو كانت نصوص قمران منتجات أصلية ترجع إلى ما قبل الحقبة المسيحية كما أعلن المكتشفون، فأن هذه النصوص دون منازع تعتبر أقدم النصوص العبرية التى وصلتنا على الأطلاق ومن ثم فإنها تحمل قيمة لا تقدر بثمن لنقاد النصوص.

وربما كانت هذه إحدى النقاط الهامة بل ربما أهم النقاط على الأطلاق التى أشعلت لهيب المناقشة عندما تم الاعلان عن هذا الكشف وعن طبيعة مخطوطات قمران. وكان كثير من الباحثين فى شك من أمر هذا الاعلان وهذا الكشف والزعم الذى نسج حوله. وبالتبعية لم يكن هناك إلا قلة من الباحثين الذين هم على استعداد للخوض فى بحث تأريخ وهوية هذه اللفافات. وكان السؤال الأول الذى طرح كان حول "أصالة" هذه المخطوطات؛ وبصرف النظر عما عرف عن الباحثين فى كل المجالات من تردد فى الاعتراف الفورى باصالة الاكتشافات الجديدة عندما يعلن عنها فى البداية؛ وعدم رغبة الكثير من الباحثين فى التورط بعمق فى هذا الشأن، بصرف النظر عن هذا كله فقد كان ذلك وسيلة يحمون بها أنفسهم من الاعلان عن أشياء مزورة أو مخادعة على أنها منتجات "أصلية"

إن مثل هذه الأحداث التى تقع فى عالم البحث العلمى هى ذات سجل تاريخى طويل فقد كانت الأعمال الفكرية المزورة ومزورو تلك الأعمال يمارسونها على مدار القرون بشيء من النجاح وإن تم اكتشاف التزوير لاحقا.

بعد هذا المخطط العام لتأريخ مخطوطات البحر الميت ندخل فى بعض التفاصيل المتعلقة بذلك التأريخ. لقد قرر البروفيسور سوكنيك بحماس الواثق أن أيا من المخطوطات التى فى حوزته يمكن بحال من الأحوال أن يرجع لما بعد سنة ٧٠م. وإزاء هذا التقرير انقسم عالم الباحثين ما بين مصدق وما بين مندهش يغلفه الفضول. ولو كانت تلك حقيقة فإن القرينة النصية للعهد القديم العبرى تؤكد أنها تقدمت عما هو معروف عنها بألفية كاملة. وسوف تتضح أهمية هذه المعلومة عندما عندما نتذكر أن النص المعيارى الرسمى للكتاب المقدس العبرى يعتمد على مصادر متأخرة نسبيًا تعود إلى القرنين الثامن والتاسع للميلاد. ونحن نعلم أن الكتاب

اليهود كانوا يتخذون أقصى درجات الحيطة والعناية فى نقل النص المقدس من جيل إلى جيل. ومن ثم فإن درجة التنسيق العالية التى اتبعت فى كتابة النص المقدس فى القرن الأول الميلادى والتى أخذ بها المازوريون مع القرن السابع الميلادى أسفرت عن (النص العبرى المعيارى) للعهد القديم.

وكانت الترجمة السبعينية هى الأخرى تقف شاهدًا على طبيعة العهد القديم فى الفترة قبل المسيحية والترجمة السبعينية هى الكتاب المقدس لليهود الناطقين باليونانية وكذلك للمسيحيين اليونان الأوائل. ومن المعروف تقليديا أن هذه الترجمة تمت فى الاسكندرية على يد اثنين وسبعين باحثا يهوديا خلال حكم بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ق.م) وكان سفر الشريعة هو أول ما ترجم من العهد القديم إلى اليونانية، بينما بقية أسفار العهد القديم فقد تمت ترجمتها لاحقًا وعلى يد أشخاص مختلفين وربما أقل كفاءة. ومهما يكن من أمر فإن ما وصلنا من نسخ الترجمة السبعينية تسبق فى تاريخها أقدم نسخ الترجمة العبرية المعيارية (المازورية) بما لا يقل عن ستة قرون. وبينما تحمل الترجمة السبعينية أدلة شديدة الأهمية والقيمة على طبيعة النص المازورى إلا أنها على الجانب الآخر كانت تنقيحا وعرضة لعيوب ونقائص كل ترجمات العمل الأصلى. وقد كشفت مقارنة النصين عن أن – وخاصة الكتابات التاريخية – الترجمة السبعينية كانت أداء جيدًا. وعندما حدد التاريخ الباكر لمخطوطات قمران، تذكر بعض الباحثين العديد من الأعمال المزورة والمقلدة فى القرن التاسع عشر والتى خدع بها الجمهور العام. وفى حقل الكتاب المقدس كانت معظم عمليات الغش الأثرى قد وقعت فى ثمانينات القرن التاسع عشر على يد تاجر آثار وتحف قديمة فى القدس اسمه (شابير). هذا الرجل كان ينسخ سفر تثنية الاشتراع على الهوامش العريضة للفافات السناجوج القديمة بخط شبيه بالخط الموجود على حجر المؤابيين. وزعم شابير أن النص كتب فى حدود ٩٠٠ قبل الميلاد ونجح فى أن يخدع بل ويؤثر فى عدد من الباحثين المعاصرين إلى أن انفضح الأمر وتكشفت الحقيقة على يد العالم م. كليمونت – جانو الذى أشرت إليه لماما من قبل والذى نشر عدة أبحاث دقيقة خاصة بهذا الأمر. ومن هذا المنطلق فإن

الشكوك التى قوبل بها هذا التاريخ المبكر للفافات كان له ما يبرره. وكان رد فعل طبيعى إزاء المخطوطات المكتشفة حديثًا وربما كان إجراء احترازيًا وقائيًا على نحو ما أشرت إليه سابقًا. ولكن عندما أعلن أن الكهف الذى أغل تلك المخطوطات فى البداية قد تم الرجوع إليه وكشفه من جديد على يد بعثة أثرية رسمية تتألف من أثريين أكفاء، اتخذ الأمر مسارًا مختلفًا. وربما خرجت حجية اللفافات نفسها من دائرة الشكوك وكان السؤال الثانى هو ما هى تواريخ هذه المخطوطات؟

يمكننا القول بأن مشكلة التاريخ تفرع نفسها إلى أربعة فروع: الفرع الأول يتعلق بالضرورة بتواريخ تأليف هذه الأعمال الفكرية؛ والفرع الثانى يتعلق بالضرورة كذلك بالتواريخ التى كتبت فيها أو أعدت فيها نسخ هذه الوثائق والتى وصلت إلينا؛ والفرع الثالث يدور حتما حول تاريخ القماش الذى غلفت به تلك المخطوطات والأوانى الفخارية التى أغلقت على تلك المخطوطات، كما يتناول بالضرورة الفحص الكامل للمسكوكات التى جاءت من قمران وذات الصلة بفترة المخطوطات. أما الفرع الرابع فإنه يدور بالقطع حول الوقت الحقيقى الفعلى الذى تم فيه إيداع الجرار الحاوية للمخطوطات بالكهوف وخاصة كهف قمران رقم ١.

ويرى الثقاة أنه فى ظل المعلومات المتاحة حتى الآن فى العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين فإن من الصعب أو من المستحيل تقديم إجابة دقيقة على السؤال الأول وهو المتعلق بتواريخ تأليف مخطوطات قمران. ذلك أن طبيعة النقل ونقل النص من نسخة إلى نسخة) بين العبرانيين القدماء كانت تقتضى تعاقب النقل من نسخة إلى نسخة إنحدارًا من نسخة المؤلف الأصلية مع الأخذ فى الاعتبار أنه فى حالة نص الكتاب المقدس لابد من توخى الحذر وعدم الخطأ فى النسخ والدقة فى النقل. وهكذا فإنه فى حالة سفر (عيسایاه: ايسایاه) فإن أقدم نسخة مخطوطة وصلت إلينا من هذه النبوءة هى تلك التى تم اكتشافها فى قمران ١ وعلى أقل تقدير تبعد عن السنة التى أملاها فيها (عيسایاه: ايسایاه) على تلاميذه وأتباعه بستمائة سنة وهى سنة ٧٣٤ ق.م ومن هذا المنطلق فإن تاريخ تأليف كتاب سفر عيسایاه يجب أن

يقرر بعيدًا عن الأرضية أو الخلفية التى تقدمها اكتشافات قمران التى لا تقدم شيئًا يذكر حول تواريخ تأليف الأصول.

ومثال آخر من سفر حبقوق الذى عثر على شرحه وتفسيره فى قمران١ حيث يمثل هذا الشرح مشكلة مزدوجة وحيث أن الشرح متأخر عن النبوءة نفسها من حيث التاريخ ولم يعاصرها، وكان نقاد النصوص قد قرروا أن سفر حبقوق يقع فى جزءين، والفصل ١، ٢ يشكلان وحدة فكرية قائمة بذاتها؛ والمزمور الذى يمثل الفصل الثالث كان مختلفا فى طبيعته عن المادة العلمية التى سبقته على الرغم من أنه ليس من الضرورى أن يكون شخص مختلف هو الذى كتب هذا الفصل. وتدل القرائن الداخلية على أن الفصلين الأولين من حبقوق قد وضعا سنة ٦٠٠ ق.م فى المملكة الجنوبية لأن النبى كان يتوقع غزو القالدانيين الذى اجتاح القدس ٥٩٧ق.م. أما الدليل الخارجى الباكر حول حبقوق فيوجد فى مقدمة أسطورة الترجمة السبعينية (بيل والتنين) (حوالى ١٠٠ق.م) حيث ذكر فى تلك المقدمة "حبقوق بن جوشوا من قبيلة ليفي".

ولو أن شرح حبقوق أرّخ بتاريخ قبل سنة ١٠٠ ق.م فإنه يكون أقدم قرينة خارجية على نص سفر حبقوق؛ ومع هذا فإنه لا (بيل والتنين) ولا (شرح حبقوق من قمران ١) يمكن أن يفعلا شيئًا أكثر من تأكيد أن نص حبقوق قد راج فى القرن الثانى قبل الميلاد وللمرة الثانية سوف يترك أمر تأليفه ووضعه للقرائن الداخلية فى السفر نفسه. أما فيما يتعلق بتأسيس تاريخ للشرح نفسه أى التفسير الذى عثر عليه فى قمران فإن الأمر متروك كذلك لنص الشرح والاعتماد على قرائن داخلة فيه إلا إذا استطعنا تحديد تاريخ إيداع المخطوطة فى قمران ١ وبالتالى يمكننا تحديد تاريخ تقريبى للنسخ.

ويذكر الثقاة أن تأريخ شرح حبقوق على ضوء النص نفسه لا بد وأن يعتمد إلى حد كبير على تحقيق الـ (كتيم) ذلك أن الشارح المفسر كان يصف الأشخاص والأحداث المعاصرة له. وقد عرض الباحثون وجهات نظر متباينة حول هذا الأمر ولهذا عُرِّف الكتيم تباعًا بين قوات السلوقيين فى عهد أنطيوخوس إيبفانيس الرابع

(١٧٥ - ١٦٤ق.م)، وأحيانا كان يعرف على أنه بين قوات الاسكندر جانوس (١٠٣ - ٧٦ق.م) الرومانى، وسواء كان الكتيم بين قوات السلوقيين أو قوات الرومان أو بين قوات الحامية العسكرية الرومانية فى فلسطين فقد تم تحديد الكتيم، أيضا بمنتصف القرن الأول الميلادى وتم وصفه على ضوء الحرب اليهودية الأولى (٦٦ - ٧٠م) بينما كان هناك من الكتاب من يعتبر ان العصور الوسطى هى السياق التاريخى للكتيم وأن الكتيم إن هم إلا الصليبيون.

ولقد حظيت مخطوطات: دليل النظام، ترانيم تقديم الشكر، الحرب وكلها من منتجات قمران ١ بنفس القدر من الخلاف فى التاريخ الذى دار حول الكتابات المقدسة. فقد نسبت لفافة الحرب إلى خلفية مكابية وذلك فى مطلع ١٩٤٨، بينما قال البعض أن كافة اللفافات خارج الكتابات المقدسة تعود لعهد الاسكندر جانوس، بداية الحكم الرومانى لفلسطين، بل وذهب البعض إلى اعتبارها من منتجات العصور الوسطى المسيحية. ولقد كشفت التحليلات الباليوجرافية عن تواريخ كتابة هذه الكتابات غير المقدسة بصرف النظر عن تواريخ تاليفها الأصلية. وبناء على تلك الخلفيات لم يعد هناك أى شك فى أن مخطوطات قمران هى أقدم من مخطوطات زادوكيت.

ويمكننا الآن أن نخلص إلى النتائج القطعية حول التواريخ التى كتبت فيها مخطوطات قمران. ففى حالة الخطوطات الخاصة بالكتابات المقدسة أمكننا الوصول داخل حدود مبررة عقليا وماديا إلى تحدى الفترة الزمنية التى وضعت أو ألفت فيها. وإن كان من الصعب علينا تحديد من تداول ترانيم تقديم الشكر قبل الحقبة المسيحية، وإن لم يكن هناك أدنى شك فى أن المخطوطة نفسها كانت نسخة من مخطوطة أقدم وليست هى النسخة الأم الأصلية.. وثمة عقبات أكبر فى حالة الكتب خارج الكتابات المقدسة عندما يحاول المرء التمييز بين تواريخ التأليف الأصلية وتواريخ النسخ التى عثر عليها فى قمران.

ولو كانت المخطوطات خارج الكتابات المقدسة قديمة فعلا على النحو الذى قال جُلّ الباحثين به فى الوقت الحاضر فإنها تكون قد نسخت فى وقت ما خلال

القرن الثانى قبل الميلاد وخاصة عندما تعزى تلك الكتابات إلى المكابيين وكذلك فإن الكتابات المقدسة تكون أيضًا قد نقلت أى نسخت فى نفس تلك الفترة أو ربما أقدم منها. ويمكننا القول مطمئنين وبدرجة كبيرة من اليقين أن هذه اللفافات ترجع إلى فترة عريضة واسعة نسبيا تبدأ من ٢٥٠ق.م وتنتهى بمغادرة الطائفة للموقع فى قمران سنة ٦٨م. ولقد قام الباحث بورَّوز بتحديد تاريخ المخطوطات ذات الكتابات المقدسة الباكرة بالقرن الثالث قبل الميلاد، بينما قرر سنة ١٠٠ق.م لمخطوطة "عيساياه: إيسياه أ" ومخطوطة دليل النظام، وقد رأى أن شرح حبقوق كتب فى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد. وقرر الرجل أيضا أن مخطوطة الحرب ومخطوطة الترانيم "وعيساياه: إيساياه ب" إلى جانب أبو كريفة سفر التكوين قد كتبت فى الصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد. وكما ألمعت فإن هذه التواريخ لا تنسحب على قطع المخطوطات التى عثر عليها فى وادى المربعات والتى كتبت فى أوقات لاحقة. ولا بد من التأكيد على أنه فى ضوء الصعوبات التى صادفت عملية التاريخ فإن الآراء التى جاء بها الباحثون الأجلاء: أولبرايت، تريفيز، بيرنباوم، سوكنيك فيما يتعلق بتواريخ اللفافات والتى بُنيت أساسًا على القرينة الباليوجرافية، قد ثبتت صحتها وخاصة بعد مقارنتها بالمعطيات الأثرية والتى أخذت تخرج إلى الوجود تباعًا واحدة بعد الأخرى.

عندما تم التنقيب فى كهف قمران ١ خرجت من بين محتوياته قرائن مادية إضافية حول تاريخ المخطوطات من بينها قطع سيراميك وقطع من قماش، كانت تستخدم كأغلفة للفافات حال إيداعها فى الجرار. وكانت قطع الفخار المنكسرة فى الكهف تقع فى صنفين: الصنف الأول عبارة عن حطام خمسين جرة وأغطية تلك الجرار، ولمبتين وكلها تعود للعصر الهللينى ومن ثم تعزى إلى القرن الأول قبل الميلاد وإن كان هناك شك حول شكل الجرار حيث لم تصلنا نماذج هللينية للجرار. وقبل ذلك الوقت لم تكن الخربة نفسها قد نقبت ومن ثم لم نكن نعرف أنها ضخت بالفعل جرارًا سليمة مغلقة من نفس الشكل الذى عثر عليه فى كهف قمران ١. والصنف الثانى من قطع الفخار المكسور تضمن أيضًا لمبتين وآنية فخارية من أصول وطرز رومانية وهذه أمكن تأريخها بالقرن الثالث الميلادى.

وكانت قطع القماش المكتشفة فى قمران ١ قد شكلت دليلاً إضافيًا يكمل القرينة الفخارية التى جاءت من نفس الموقع. وعندما تم فحص القماش وجد أنه كتان محلى الصنع لأن هذا الكتان كان يصنع فى فلسطين بالطريقة التى وجد عليها فى الكهف بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الثانى الميلادى، وكان من الواضح أن قطع القماش نفسها جاءت من نفس الفترة العريضة العامة. ومن حسن الحظ أن مصادر الفيزياء الذرية الحديثة ساعدت فى تقديم أدلة راسخة تدعم الاعتبارات الأخرى فى تحديد التواريخ.

هذا الإجراء الفيزيائى الذى دخل فى عملية تقدير التواريخ استخدم وسائل راديولوجية لتحديد الوقت الذى صنع فيه القماش من الكتان وحيث أن كل شيء يشتمل على نسبة من الكربون المشع وحيث ان الكربون العادى يوجد فى كل الكائنات الحية لدرجة الثبات وله وزن ذرى ١٢، بينما الكربون المشع غير ثابت وهو يتكون فى طبقات الجو العليا من خلال قذف ذرات نتروجين ١٤ عن طريق الأشعة الكونية وله وزن ذرى ١٤.

ويتحد الأوكسين مع كربون ١٤ هذا الثقيل ليكون تشكيلة من ديوكسيد الكربون والذى يتم امتصاصه من جانب كافة الكائنات الحية بنسب دائمة بنسبة واحد من التريليون من الجرام من كربون ١٤ إلى جرام واحد من كربون ١٢. وتبدأ محتويات الكربون المشع فى التناقص المستمر كلما قاربت حياة الكائنات على الانتهاء. وكذلك فإن كربون ١٤ يأخذ فى الإنخفاض التدريجى. وفى الوقت الذى يتوقف فيه امتصاص العنصر يمكن تقديره عن طريق قياس كمية كربون ١٤ المتبقية فى الجسم. وقد وجد أن منتصف عمر ذرة الكربون المشع يبلغ ٥٥٠٠ سنة ومن هنا يمكن حساب عمر أى شيء عضوى عن طريق تقليص أى مادة إلى كربون بالحرق ومن ثم قياس مخلفات كربون ١٤ بواسطة عداد شديد الحساسية للاشعاع. وهناك هامش للخطأ يقدر بنسبة ٥ – ١٠٪. والقياس حاليًا لا يتجاوز ٢٠.٠٠٠سنة.

ومن واقع الفحوصات والاختبارات التى أجريت على المواد المختلفة اتضح أن هناك مواد ترجع إلى ذلك التاريخ وأخرى لا ترجع، وربما يصبح قياس الكربون

المشع فى المستقبل أكثر دقة وأوسع مدى. وعلى الرغم من معرفتنا بنسبة الخطأ فى القياس الكربونى إلا أن النتيجة التى خرجنا بها هنا كانت مرضية.

عندما اتخذ قرار القياس الكربونى على أجزاء من نسيج قمران تم حساب عمر هذا النسيج تحت إشراف البروفيسور د. ف. ليبِّى سالف الذكر فى جامعة شيكاغو وكان رائد طريقة التأريخ بالكربون المشع. ولقد أعلن بعد التجربة أن الكتان توقف عن فرز كربون ١٤ عند سنة ٣٣م مع هامش زيادة أو نقصان ٢٠٠ سنة ومن هنا يكون المدى الزمنى للمخطوطات ما بين ١٦٨ق.م. و ٢٣٣م. وكانت العملية الضابطة هذه والتى قدرت التاريخ المركزى لمخطوطات قمران قد أعطت دليلاً إضافيًا على أصالة وقدم مخطوطات قمران. وبقى على الكشوفات الأثرية أن تقدم مزيدًا من الضوء ومزيدًا من القرائن لعملية التأريخ.

وعندما بدأ الاكتشاف والمسح الدقيق لمنطقة قمران فى مارس ١٩٥٢ تم العثور على كميات كبيرة من شرائح الفخار فى كهف صغير استخدم كمخزن وفى صدع فى سطح الصخور. وكانت قطع الجرار الطويلة مع الغطاء تشبه تلك التى عثر عليها فى قمران ١. وبنفس الطريقة تم العثور على بقايا دستة جرار من كهف قمران ٢، كما تم المعثور فى كهف قمران ٣ على لمبة وعدة أكواب مكسرة وبقايا جرة فخارية. ومع اكتشاف المزيد من الكهوف فى قمران اتضح لنا أن بقايا الفخار كانت تمثل مستودعا عامًا، بمعنى آخر أن الجرار كانت تودع فى مكان محدد كمخزن لها وقد اتضحت تلك الحقيقة أكثر بعدما تم التنقيب فى الخربة التى تقع على الهضبة على بعد ميل واحد جنوب الكهف الأول.. وكما ألمعت من قبل فى النبذة التاريخية كان الحفر المبدئى فى الموقع قد بدأ سنة ١٩٥١ واستمر بعد ذلك حيث النتائج الأولية مشجعة. وقد تم كشف عدد لا يحصى من شرائح هذه الجرار بعضها فى أكوام حطام شمال الخربة. وقد أرخت تلك القطع بنهاية الفترة الهللينية؛ وثبت أنها من نفس النوع الذى يرجع إلى فترة الاستيطان الأول للمجتمع.

أما فترة الاستيطان الثانية فقد أغلت قطعا من السيراميك ترجع إلى مطلع الحكم الرومانى فى فلسطين. ولقد جاءت الحفريات التى أجريت فى أجزاء مختلفة

بقطع قليلة من الفخار التى كتبت عليها كلمات عبرية، بينما القطع الفخارية الأخرى (شقافة) كانت تحمل حروفًا يونانية. وقد كشف موسم التنقيب الثالث فى الموقع عن "كرار" أو حجرة تخزين مواد وأدوات المطبخ به أكثر من ألف سلطانية من أشكال مختلفة ومن أحجام متفاوتة مرصوصة على رفوف بحذاء الحوائط. وفى إحدى حجرات مركز المجتمع المحطم تم العثور على جرة أسطوانية سليمة تماما من نفس ذلك النوع الذى وجد فى كهف قمران رقم ١ ومن هنا كشف تأريخ السيراميك عن شغل هذا الموقع وسكناه فى الفترة اليونانية – الرومانية، فى الفترة الأولى من ١١٠ ق.م – ٣١ق.م وجاءت فترة السكنى الثانية بعد فترة إنقطاع. وكانت هذه السكنى الثانية بين ١ – ٦٨م؛ مما يكمل حلقات تاريخ ذلك المجتمع، ثم فترة شغل وسكنى المكان بعد ذلك لمدة قصيرة حوال ١٣٢م خلال الحرب اليهودية الثانية ضد الرومان.

وكما ألمعت مرارا من قبل تم العثور على ٢٥٠ قطعة عملة معدنية فى أطلال مركز المجتمع؛ على الرغم من أن عددا من تلك القطع لم يتم التعرف عليه بدقة، إلا أن معظمها قد باح بمعلومات هامة وأعطى صورة واضحة عن تاريخ شغل وسكنى خربة قمران. وقد تم العثور على مجموعات أخرى من العملات فى أماكن متفرقة رفع العدد الإجمالى إلى نحو ٧٥٠ قطعة. وكان كثير من هذه القطع يرجع إلى الفترة الحاسمونية وقطعة واحدة من بين القطع المكتشفة ترجع إلى زمن هيرود الأكبر. وثمة قطع أخرى كانت قد سكت أيام حكم النواب الرومان حتى سقوط القدس سنة ٧٠م، بينما كانت هناك دستة من العملات ترجع إلى فترة الثورة اليهودية الثانية (١٣٢ – ١٣٥م). ومن النوافل القول أن هذه القرائن التى جاءت بها المسكوكات قد دعمت معطيات الفخار وأفادت فى ربط النشاط السكانى وشغلهم للموقع بمحتويات كهوف قمران.

لقد أفادت الحفريات والتنقيبات التى أجريت فى منطقة وادى المربعات سنة ١٩٥٢ فى الكشف عن فترات سكنى البشر لهذه المنطقة والتى بدأت مع العصر النحاسى (٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ق.م) وانتهت مع التواجد العربى فى القرن الرابع عشر

الميلادى. ولقد تم اكتشاف قطع فخار من جميع فترات السكنى وشغل الموقع. وقد مثّل العصر الرومانى بقطع من الفخار شبيهة بتلك التى وجدت فى قمران. كما وجدت عدة قطع من عملات تمثل كل الفترات الرومانية وتبدأ من عصر نيرون (٥٤ – ٦٦م)، وحتى هادريان (١١٧ – ١٣٨م) كما جاءت تسع قطع من فترة الثورة اليهودية الثانية (١٣٢ – ١٣٥م).

وكانت المخطوطات التى عثر عليها فى وادى المربعات ترجع جميعها فى الأساس إلى القرن الثانى الميلادى رغم العثور على طرس من بردى أجمع الثقاة على إنه يرجع إلى ٦٠٠ ق.م. على نحو ما أسلفت. وتكشف القطع المخطوطة التى عثر عليها فى كهف المربعات ١ وكهف المربعات ٣ والمكتوبة بالعبرية واليونانية والآرامية واللاتينية والعربية عن فترات سكنى طويلة للموقع. وقد أرخت المخطوطات العبرية واللاتينية واليونانية بالقرن الثانى الميلادى وقد أكدت المسكوكات التى تم العثور عليها تلك الحقيقة التى توصلنا إليها بالنسبة للمخطوطات التى تم العثور عليها فى خربة مرد فقد تضمنت قطعا مكتوبة بالعربية والسوريانية واليونانية وتغطى فترة عريضة تبدأ مع القرن الخامس الميلادى وحتى القرن الثامن الميلادى وبديهى أن تكون مخطوطات خربة مرد متأخرة كثيرا عن وثائق قمران والمربعات.

والفرع الأخير من فروعنا أو السؤال الأخير هنا هو التاريخ الذى أودعت فيه الجرار الحاوية للمخطوطات كهوف قمران للحفظ والصون. للإجابة على هذا الفرع يجب أن نتذكر ما قاله دى فوكس من أن كهف قمران ١ كان فيه مخبأ أو كان هو مخبأ لإخفاء مكتبة قيمة فى وقت الطوارئ؛ ولكن كما قال باحثون آخرون إن أوقات الطوارئ كانت عديدة فى تاريخ فلسطين الطويل المضطرب؛ ومن ثم ما هى الفترة أو ما هى الطوارئ التى استدعت إيداع الجرار فى الكهوف وخاصة أن بعض الطوارئ كانت مؤقتة ومحلية وعارضة.

ولتحديد تاريخ إيداع الجرار فى الكهوف بشيء من الدقة فلا بد من الاعتماد على تاريخ الفخار نفسه وكذلك قماش الكتان الذى غلفت به لفافات المخطوطات

نفسها لأن تاريخ التغليف هو أقرب تاريخ لإيداع الجرار فى الكهوف. الجرار بلا شك ترجع إلى الفترة اليونانية – الرومانية سواء فى الشكل أو المادة.. وعندما تم العثور على جرة كاملة سليمة بين أطلال مستوطنة المجتمع وتم تأريخها بالاستعانة بقطعة عملة معدنية مؤرخة ١٠ م من نفس فترة شغل وسكنى المستوطة غدا من الميسور معرفة تقدير تاريخ إيداع الجرار فى الكهوف، وليس ثمة شك فى أن النسيج الكتانى كان قد تم صنعه بعد قطع عيدان الكتان مباشرة وهو ما يمكن تقديره بسنة ٣٣م إذا كان لنا أن نأخذ بمتوسط العمر الذى حدده اختبار كربون ١٤.

وطبقًا للشواهد الباليوجرافية يبدو للعيان أن كل النسخ المودعة قد تم إعدادها سنة ٧٠م على أبعد تقدير. وتكشف قطع السيراميك التى تم تأريخها عن أن الجماعة الدينية التى أنتجت المخطوطات قد أنهت وجودها الكامل المنظم سنة ٦٨م. وبالتبعية يكون من الصعب علينا القول بغير أن المخطوطات والجرار قد أودعت فى الكهوف فى هذا التاريخ ٦٨م؛ وأن قرائن الفخار والمسكوكات والقرائن الباليوجرافية كلها مجتمعة ومتشابكة تدعم قدم وحجية مخطوطات قمران.

وصفوة القول أن مخطوطات البحر الميت كنز ثمين كتبت يقينا فى الفترة ما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى وكان علينا أن نتناول فى الفصول السابقة ببعض الإسهاب والتحديد بعض المخطوطات الأساسية التى تم العثور عليها وأيضًا الاكتشافات فى وادى المربعات وخربة مرد لأن الاكتشافات التى وقعت فى وادى قمران طغت عليهما وربما طمست معالمهما. وكان من الطبيعى أن نتناول أيضًا وبشيء من التفصيل ذلك المجتمع الدينى اليهودى الذى أفرز تلك المكتبة القديمة الموغلة.

* * *